بقلم الاب لامنس اليسوعي

١

المسائل المهمة التي لم يتعرّض لها جغرافيّو العرب الّا نادرًا مسألة اصول الشعوب الساكنة لبنان في القرون الوسطى. وذلك ان لبنان لم يكن ليسترعي انتباه اولئك الجغرافيين، فان سكانه المسيحيين في اكثرهم لم يخضعوا لسلطة الغزاة خضوع جيرانهم سكان الداخلية. على انه من الخير ان نلفت النظر، بهذه المناسبة، الى الاسطر القليلة التي خصها بوضوعنا، في اواخر القرن التاسع (سنة ٨٩١ م. او ٢٧٨ هـ.)، المؤرّخ الجغرافي اليعقوبي في مؤلفه المعروف «بكتاب البلدان»[1]

يطلعنا اليعقوبي، في كلامه على بعلبك، ان «اهلها قوم من الفرس». وهو يورد الملاحظة نفسها في كلامه على عرقة، مدينة صغيرة في شمالي شرقي طرابلس، فيقول: «فيها قوم من الفرس ناقلة» اي قدموا اليها من الخارج. اما في ما خصّ طرابلس فيذكر سكانها الفرس، ويزيد ان «معاوية ابن ابي سفيان كان قد نقلهم اليها». ثم يذكر مدن جبيل وصيدا وبيروت ويؤكد قائلًا: «واهل هذه الكور كلها قوم من الفرس نقلهم اليها معاوية ابن ابي سفيان.» وفي هذا التأكيد بعض المبالغة دون شكّ. فيجدر بنا ان نفهم قول اليعقوبي بشيء من التحفّظ فنعرف ان في تلك الكور بعض العناصر

---

١) طبعة دي غوية ص ٣٢٧، وهو المجلّد السابع من «خزانة جغرافيي العرب».

الفارسية . وذلك ان اليعقوبي نفسه يشير الى سكان من غير الفرس كبني عاملة ، في جبال صيدا[1] .

على ان المهمّ ان نعرف مَن كان اولئك الفُرس ، وما الذي دفع بهم الى السواحل اللبنانية ؟

لا يخفى ان فتح العرب لسورية حصل كجميع الفتوح شيئاً فشيئاً وبظروف متفاوتة . فبينما كان الغزاة يدخلون بسهولة سورية الشرقية المفتوحة سهولها على الصحراء ، كانوا يتوقّفون امام المناطق الجبلية ، فتصدّهم عنها طبيعة الارض فلا يفكرون بالتوغل فيها . اما الساحل اللبناني فلم يفتحه العرب الّا « فتحاً يسيراً » على قول البلاذري[2] . وهو تعبير لطيف يمكن ان نفهمه بمعانٍ عدة ، فيكون المقصود به فتحاً جزئياً ، او فتحاً سطحياً ، او فتحاً سهلاً . على ان المعروف ان العرب لم يهتموا بهذا الفتح الّا ليضعوا الجزية على الساحل المذكور ، فلم يفكروا اولاً باحتلاله احتلالاً عسكرياً . وهكذا رأينا المدن اللبنانية ، في ربع القرن الاول للهجرة ، تنتقل عدة مرات من العرب الى البيزنطيين ومن هؤلاء الى اولئك . والسبب في ذلك ان البيزنطيين كانوا لا يزالون مسيطرين على البحر ، ذاك العنصر المضطرب الذي كان يخافه كل الخوف بدو الصحراء المتشبّثون ببابستهم .

على ان هذه الحالة لم تكن لتروق العرب ففكروا بالتخلّص منها . فقام معاوية ، على ما يروي البلاذري[3] ، بجلاء كثير من اهل تلك المدن الساحلية . وقد نقل صالح بن يحيى في « تاريخ بيروت »[4] كلام البلاذري ملخّصاً ، ولكنه بدل « جلا » وضع « خلّى » فاتى معنى قوله ان معاوية خلّى في بيروت كثيراً من اهلها .

ومهما كانت الرواية التي يختارها المطالع ، فان النتيجة واحدة وهي

---

١) الكتاب المذكور : ص ٢٢٧ ، السطر ٣

٢) البلاذري : فتوح البلدان ، الطبعة الاولى ، ص ١٢٦

٣) الكتاب المذكور : ص ١٢٦ ، السطر الاخير

٤) طبعة الاب شيخو اليسوعي ، الطبعة الاولى ، ص ٢٢

ان المدن الساحلية اخذت تفقد من سكانها منذ الفتح العربي . فكان من دهاء معاوية انه عمل على سدّ هذه الثلم بعناصر جديدة من السكّان تكون اوفر موالاة للفاتحين من السكان الاصليين . ولم يتراجع امام شيء في هذه الغاية ، وفي سبيل اقرار السلطة العربية في طرابلس ، تلك المدينة التي كانت تسيطر ، مع مدينة عرقه ، على وادي النهر الكبير المكوّن طريقاً فسيحة مفتوحة امام من يقصد سورية الداخلية من الغزاة . ولما كان سكان طرابلس يتذمّرون من ذاك التغيير في نظام الحكم ، اسكن معاوية بينهم « جماعة كبيرة من اليهود »[1] .

ولسائل ان يسأل : لماذا لم يسكن معاوية العرب في تلك الانحاء بدل اليهود والفرس ؟

اما الجواب فقد تبسطنا فيه في احد ابحاثنا السابقة[2] وخلاصته ان البدو كانوا ينفرون دائماً من الاقامة ضمن اسوار المدن . فكان معاوية ، كلّما ارادهم على ذلك ، آب بالفشل . وقد لزمه كثير من السياسات وزمن طويل حتى استدرجهم الى سكنى دمشق وغيرها من مدن سورية المجاورة لصحرائهم . وفضلاً عن ذلك فان البدو لم يكونوا ليرضوا بسكنى السواحل اللبنانية حيث يكونون عرضة للمخاطر الدائمة ، وهم بين البحر الزاخر بالبيزنطيين والجبل الحافل بشعوب لم تكن قد خضعت لسلطة العرب . ومما يؤيد عظم الخطر البحري وجرأة قرصان البيزنطيين الذين كثيراً ما كانوا يهجمون على ميناء بيروت فيغتصبون المراكب التجارية ما ذكره ابن عساكر[3] ، على عهد هشام بن عبد الملك (٧٢٤–٧٤٣) كما يظهر ، قال : « فاغار الروم على جماعة من تجّار مرسية بجهة بيروت وذهبوا بهم فمرّوا على باب ميناء بيروت واهلها ممسكون بايديهم هيئاً لهم » ولم يذكر ابن عساكر وجود حامية عربية في بيروت .

---

١) البلاذري : الكتاب المذكور ، ص ١٢٧

٢) راجع كتابنا *La Bâdia et la Hira sous les Omayades*, pp. 99 sqq. dans MFOB, IV, 1910

٣) تاريخ دمشق ، طبعة بدران : ٣ : ٤٧

وشعر معاوية بوجوب احتلال السواحل احتلالاً عسكرياً . فعمل على ترغيب الجنود العربية في الاقامة هناك بان اخذ يقطعهم القطائع . على ان حالتهم كانت عرضة للقلق والاضطراب ، لانهم كانوا يخشون ، من يوم الى آخر ، نزول البيزنطيين الى البرّ . فكانوا ، اذا شعروا بخطر من جهة البحر ، يسرعون بقطع جبال لبنان وبالالتجاء الى مراكز حامياتهم في الداخلية . وهي الحالة نفسها التي تتحقق وجودها على السواحل المذكورة ، ستة قرون بعد الفتح العربي ، اي على اثر الحروب الصليبية[1] . حتى ان المماليك ، الذين كانوا يخشون رجوع الفرنجة من وقت الى آخر ، اخذوا بتخريب مدن الساحل مكتفين بان بان يراقبوا العدوّ من بعلبك ومن دمشق ، حتى اذا انبأتهم رسائل حمام الزاجل بظهور الاشرعة اللاتينية في عرض البحر ، انحدروا بجيوشهم لملاقاته .

فلا غرابة ، والحالة هذه ، في ان تكون مراكز الحاميات الفنيقية مرغوباً عنها في القرن الاول للهجرة . فكان يتجنبها العرب لما كانت تمثل لهم من المخاطر . ولم تكن السلطة تُرسل اليها الا المتطوّعة من الراغبين في الجهاد حتى الاستشهاد . ولهذا اتاح الحظّ لبيروت ان ترى بين جدرانها عدداً من رجالات التاريخ الاسلامي الاول . وكانت حاميتها تتلق بجند دمشق او منطقتها الحربية فكان يهبطها من رغب بالجهاد الخطر من المتطوعة . وقد روى ابن عساكر[2] ان سلمان الفارسي الشهير ، لما زار مدينة دمشق ، طلب ان يحيّي ابا الدرداء . فقيل له انه « مُرابط » في ساحة الجهاد . فقال : واين مرابطكم يا اهل دمشق ؟ قالوا : في بيروت . فسار سلمان الى بيروت راجياً ان ينال هو ايضاً حظاً من الجهاد . وقد نال مكحول الشهير لقب « البيروتي » لانه جاهد في بيروت عدة سنوات . وكذلك رابط ببيروت مدة طويلة الامام الاوزاعي[3] . ومعنى « رابط » هنا اقام في حاميتها مستعداً للحرب او الجهاد ، لا معتزلاً زاهداً عاكفاً على التأمل والصلاة كما قد يشرح بعضهم هذه اللفظة .

---

١) اطلب في ذلك Lammens, *La Syrie*, II, p. 2 sqq.

٢) ابن عساكر : الكتاب المذكور ٣ : ٣٦٤

٣) صالح بن يحيى : الكتاب المذكور ، ص ٣٤

فان « الرابطة » ، في القرن الاول للهجرة ، لم تكن تختص الا بالفنّ الحربي ، ولم تكن تستعمل الكلمة نفسها الا في اللغة الحربية[1] . اما معنى الزهد والاعتزال والعكوف على الصلاة و«المرابطة» فتأخر عن المعنى الاول.

وقد بلغ من شدة الخطر في السواحل الفنيقية ان عمّال الولايات العراقية ، وهي اكثر المناطق شغباً لما كان يجتمع فيها من القبائل المقلقة ، كانوا يهدّدون المشاغبين بارسالهم الى حاميات فنيقية ، وهي «المسايرة»[2] كما كان يُقال ، فيخلد هؤلاء الى السكينة . حتى اذا عاودوا الشغب ارسلتهم السلطة الى شواطئ لبنان يرابطون بها مدة معلومة فيعودون هادئين ساكنين.

***

على اثر مقتل علي اصبح معاوية سيّد الخلافة الوحيد ، فرأى ان يأخذ بالوسائل الفعّالة لقمع الثورات الداخلية وتعزيز الحامية في الثغور . فكان من جملة تلك الوسائل تفكيك عُرى الجماعات المشاغبة وجلاء البعض منها . وقد عاونه في ذلك زياد ابن ابيه[3] عامل الولايات الشرقية.

كان الفتح العربي قد ترك ما بين النهرين ، دجلة والفرات ، الوفاً من العساكر الفارسية الذين كانوا يرتزقون بالمقاتلة . فضلاً عن العدد الوافر من الزُطّ والسيابجة[4] ، وهم ايضاً من العساكر غير النظامية الذين كان يجلبهم الساسانيون من الهند فيستأجرونهم في حروبهم . وكان المقاتلة الفرس يمتازون بلونهم المائل الى الحمرة فدعاهم العرب « بالحمراء » . وكان اكثرهم قد دانوا بالاسلام ظاهرياً لقاء معاش تدفعه الحكومة . على انهم ظلّوا ، وابناؤهم من بعدهم ، غرباء في ذلك المجتمع العربي لا تقاليد لهم يسكنون اليها ، ولا مساواة تعدلهم بالعرب على رغم اسلامهم . فكانوا يلبون كلّ داع الى ثورة وينصرون كل قائم بحركة . ولم تكن ارض العراق لتخلو من هذه الحركات ولاسيما بعد

---

١) من ذلك قول القرآن ٣ : ٢٠٠ ، ٨ : ٦٢

٢) راجع الطبري ، طبعة دي غويه ، ١ : ٢٩٠٩–٢٩١٥ ؛ ٢ : ٢٥٨ ، ١

٣) اطلب كتابنا *Ziad ibn Abihi*, p. 109

٤) اطلب في ذلك مقالة فرّان في المجلة الاسلامية . Ferrand, [Encycl. de l'Islam]

موت علي . فشاءت السلطة ان تتلافى هذا الخطر الدائم ففرّقت « الحمراء » اولًا واقامت قسماً منهم بالبصرة وقسماً بالكوفة . حتى رأى معاوية بثاقب بصره حلًا اوفق لهذا المشكل . فعمل ، بوقت واحد ، على تهدئة العراق وتأمين سورية فسيّر « الحمراء » الى السواحل اللبنانية وعهد اليهم بحفظها . « فهم بها يُدعون الفُرس » كما يفيدنا البلاذري[1] . ثم قام معاوية بالعمل نفسه في ما خصّ جموع المقاتلة من الهنود كالزُطّ والسيابجة « فنقل منهم الى سواحل الشام بشراً »[2] . ونقل غيرهم ايضاً ، في سبيل الغاية نفسها ، الى مناطق انطاكية التي كانت الحروب البيزنطية قد اخربت الكثير منها وقلّلت فيها عدد السكّان .

هؤلاء هم الفرس الذين اشار اليعقوبي الى وجودهم في فنيقية . وقد عرفنا السبب في نقلهم الى السواحل والغاية من اسكانهم فيها ، وهي اولًا غاية عسكرية ثم غاية عمرانية لسدّ الثلم التي احدثتها الحروب في السكان . عرفنا ذلك بفضل المعلومات التي حفظها معاصر اليعقوبي ، المؤرخ البلاذري المتوفى سنة ٨٩٢ . وتعرف بواسطة الكندي[3] وابن الاثير[4] انه كان من اختصاص هؤلاء الفرس في مدن السواحل ، كما كان من اختصاصهم في العراق ، ان يسهروا على السجون ويراقبوا خصوصاً المبعدين السياسيين .

ولكنّ هناك امرًا غريباً في ما خصّ موضوعنا . فان البلاذري نفسه[5] يزعم ان العرب عند دخولهم سورية وجدوا « فُرساً » مقيمين في بعلبك . يظهر ذلك من نصّ عهدٍ كتبوه لاهل تلك المدينة حول السنة ١٥-١٦ للهجرة وفيه يقسم سكان بعلبك الى ثلاثة اقسام : روم وفرس وعرب . على ان انشاء هذا العهد ، الذي لم يذكره الّا البلاذري وحده ، يخرج عن المعتاد وهو امر يستحق الملاحظة والاستغراب . ولا يقلّ غرابة عن ذلك ما ورد فيه من الشروط

---

١) البلاذري : الكتاب المذكور ، ص ٢٨٠ ، السطر ٧

٢) البلاذري : الكتاب المذكور ، ص ٢٧٦ ، السطر ٨

٣) الكندي : ولاة مصر ، طبعة Guest ، ص ٨ ، السطر الاخير

٤) ابن الاثير : أُسد الغابة ٢ : ٢١ ، وليُقرأ : « فارسي »

٥) البلاذري : ك . م . ص ١٢٠

وتحديد الحالة السياسية وعناصر السكان مما لم نعهده في امثاله .

وليس الصكّ المذكور معاهدة ولا اتفاقاً ، بل هو ، في الحقيقة، مثال لتحرير جواز لشخص مجهول او « كتاب امان لفلان بن فلان » . وهو لا يحمل توقيع احد ولا اسم قائد ولا شاهد ، كما نرى في جميع العهود والامانات التي وصلتنا من ذاك العصر . وقد لاحظ الدوق كايتاني[1] ان هذا السند محوَّر ومبدَّل فيه بدليل تقابل لفظتي « الجزية » و« الخراج » واستعمالهما بمعنيين متميزين، وهذا التميز متأخر دون شك عن القرن الاول للهجرة .

ومهما يكن من الامر فاننا لا نرى شرحاً وافياً لوجود الفرس في بعلبك قبل الهجرة .

مما لا شكّ فيه انه كان في بعلبك ، بعد ذاك العهد ، كثير من السكّان ينتمون الى الفرس . وقد ذكر منهم ابن عساكر[2] في ترجمة رجل اسمه محمد بن وضي بن بلال بن فزارة . على انهم كانوا قد استعربوا كما يظهر من هذه الاسماء المتتابعة . ولكن المشكل الذي لا يمكن حلّه هو هل ينتمي هؤلاء الفرس الى « الحمراء » الذين سيّرهم معاوية كما تقدم ، ام يرتقون الى الفرس الذين ذكرهم البلاذري مقيمين في بعلبك قبل الفتح الاسلامي ؟

---

١) الطب *Annali dell' islam*, III, 435

٢) في مخطوطة دمشق ، المجلد ١٦ ، وهي غير مرقمة الصفحات .

(للبحث صلة)